فقد أمرتها الحكومة بأن تحل نفسها، واستوعب الجيش أعضاءها كأفراد. وبصورة ما، كان تحول الهاغاناه إلى جيش رسمي للدولة عملاً شكلياً أكثر منه فعلياً. فقد ظل التنظيم العام وسلسلة القيادة والأشخاص والولاء دون أي تغيير. ولكنه بصورة أُخرى كان تغييراً حقيقياً بالفعل... فقد كان رمزاً للتحول التاريخي لفلسطين إلى دولة يهودية»[١٨].

وقد سبق ولادة جيش التحرير الفلسطيني، خلق وحدات نظامية فلسطينية، اعتمد وجودها على منظور قومية معركة التحرير بواسطة الجيوش العربية التي هي، من وجهة النظر هذه، المؤهلة لخوض المعركة. وعملت بعض الأنظمة العربية على تكريس هذا المفهوم في وعي الجماهير، فأنشأت قوات فلسطينية نظامية للمشاركة في معركة المستقبل.

ومن خلال الرؤية نفسها، ولكن، مع إعطاء دور أكبر للفلسطينيين، كانت ولادة منظمة التحرير وجيش التحرير: جناحها العسكري. وبالتالي، فقد كان وجود جيش التحرير سابقاً على انطلاق المقاومة الفلسطينية الحالية ولم يكن نتيجة لها؛ وهذه إحدى أهم خصوصياته. فإذا أضفنا، إلى ذلك، القيود والالتزامات التي يرتبط بها هذا الجيش مع الجيوش العربية، بناءً على اتفاقات عربية مع منظمة التحرير الفلسطينية، تصورنا مدى حساسية وضعه ومحدودية فعاليته.

وعندما انطلق العمل الفدائي الفلسطيني، جاءت انطلاقته وكأنها بديل غير مؤهل عن جيش التحرير. فكان لا بد، والحالة هذه، من أن يبرهن أنه الأقدر على التصدي للنضال الفلسطيني، فكانت قوات التحرير الشعبية، هي تنظيم مقاومي الجيش. وبالرغم من أن هذه الخطوة جاءت وثبة إلى الامام في مجرى دور الجيش، إلا أنها لم تأت من منظور ثوري شامل. وإنما جاءت مجاراة للعمل الفدائي وتوسيعاً لدور جيش التحرير، دون أن يواكبها تغيير يذكر في مفاهيمه وبنيته وارتباطاته. ومن منظور مختلف، وجدت المقاومة، في هذا الجيش، مؤسسة تقليدية عتيقة معوقة. ورأت أن ارتباطه بإرادات غير فلسطينية يجعله خطراً، وبالتالي يجب الحد من فعاليته. ولما كان الانصاف يقتضينا أن نقرر أن هذا الجيش قد أثبت في مواقف النضال كلها، أنه جيش فلسطين، وأنه قادر على الفعل إذا تهيأت له الفرصة المناسبة. وإذا ما أضفنا ما يتمتع به من قدرات تكتيكية وفنية وخبرة عسكرية يمكن الافادة منها دائماً. فإن الموقف من الجيش كان يتطلب نظرة أكثر واقعية وشمولاً.

صحيح أن الروح الثورية عامل رئيسي في الحرب الثورية، لكن هذا لا يمنع من أن تكون المعنويات الثورية غير كافية للانتصار، ما لم تكن مدعومة بوسائل تكتيكية وعلمية وتقنية، تكتسبها الحركات الثورية عبر نضالها الطويل من خلال نمو العصابات وتحوّلها إلى وحدات نظامية.

وكي تحسم الثورة الصراع لصالحها، لا بد لها من جيش ثوري منظم، قادر على القتال بكتلة كبيرة؛ وذلك لما تحققه قوة الصدمة من امكانية قهر القوة الرئيسية للجيش المعادي، بالاضافة إلى امكانات هذا الجيش على احتلال الأرض والاحتفاظ بها واقامة السلطة الثورية عليها. والجدير بالملاحظة، إن العصابات الثورية غالباً ما تفرز جيشها.